يُحدّثك الشهيد في هذا الكتاب عن إخوانه المجاهدين ويضعك أمام مشاهد حقيقيةٍ ووقائع دامغةٍ، تفرض عليك الإذعان لعظمة هؤلاء الرجال، وتدفعك دفعًا للتساؤل: مِن أيِّ أرضٍ خرجوا؟، وأيّ تربيةٍ صيّرتهم إلى هذا المقام؟، ولايتركك في الحيرة وإنّما يأخذ بيدك لتشهد مشاهد التلاوة، والتعلّق بالمساجد، وقيام الليل، وصدق المناجاة مع الله، ثم يلفت نظرك إلى طبيعتهم البشرية، فيُريك ضعف بعضهم، وتردد فئةٍ منهم، ليُريك الحقيقة الكاملة لا الخيال المُصفّى.

يتحدّث الكاتب عن الشهداء بحبٍّ ووفاء، عن طاعتهم لله، وعن تفانيهم في الفداء، وعن روحهم الجماعية التي ما كانت تقف عند ذواتهم؛ فلو كُلِّف أحدُهم أن ينقل جبلاً لنقله، كانوا يُقدِمون على الموت المحتوم بإيمانٍ وثبات، وكان أبناء القيادات في طليعة المجاهدين لا في الصفوف الخلفية، يستسيغون التضحية كما يستساغ الماء الزلال.

في هذا الكتاب، يطلُّ عليك مجتمعٌ أصيلٌ، وجيلٌ مقدامٌ، صابرٌ، منتمٍ بصدقٍ إلى أمّته، مستنصرٌ بها، مشفقٌ على حاضرها، وقلقٌ على مستقبلها، وعاتبٌ على خذلانها، إذ خذلته حين نهض لأجلها، وثار مستنهضًا همَّتَها، مستحضرًا مجدها، متألّقًا بشرف الانتماء لها.

وعطفاً على كل ما سبق فهذا كتابٌ عظيم الشأن، فريدُ المنزلة، جمع بين التفسير العميق لآيات الكتاب، والقصِّ المؤثّر لمشاهد الجهاد، وتحليلٍ للواقع بعينٍ قرآنيةٍ وبصيرةٍ تربوية، وأحثُّ القارئ على طول الصحبة مع مادة الكتاب، ومعايشة صفحاته، والتأمُّل في عناوينه وتفاصيله، واقتنائه وقراءته، ثم الرجوع إليه تكرارًا، حتى تُحفَظ عباراتُه، وتُستَصحَب نظرات مؤلفه، وتُصبغ بها الحياة، وتستنير بها القلوب.